عرض كتاب: الهوسا في السودان وتأثرها بالعربية - تأليف: الأمين أبومنقة

عرض: عبد الرحيم حامد مقدم

Al-Amin Abu-Manga, *Hausa in the Sudan: Process of Adaptation to Arabic*. Koeln, Rüdiger Köppe, 1999 (215 pages)

يعد كتاب الأمين أبومنقة: الهوسا في السودان وتأثرها بالعربية (باللغة الإنجليزية) من الكتب التي يجد فيها القارئ متعة كبيرة وكماً هائلاً من الفوائد التاريخية واللغوية ذات الصلة الوثيقة بإحدى القبائل الأفريقية الكبرى وهي قبيلة الهوسا. فالكتاب يستعرض تاريخ دخول القبيلة في السودان والدور الكبير الذي لعبه أفرادها في العديد من المجالات الاقتصادية والاجتماعية، إلى جانب عرض وتحليل شاملين للمؤثرات اللغوية التي تعرضت لها لغة الهوسا لاحتكاكها المباشر وغير المباشر باللغة العربية.

يقع الكتاب في سبعة فصول محكمة من حيث المحتوى والترتيب. تحدث الفصل الأول عن الإطار النظري الذي بنيت عليه الدراسة وعن منهجية الدراسة والتي تقوم على جمع المادة البحثية وتحليلها. وقد بذل الباحث جهداً مقدرا في جمع مادته، إذ إنه جاب بلاد السودان غرباً وشرقاً ووسطاً بحثاً عن كل ما له صلة بلغة الهوسا. فقد تحدث عن عوامل هجرة مجموعات من الهوسا إلى السودان، من عوامل دينية واقتصادية وسياسية. وقد أبان أن العامل الديني هو الأقوى والأعمق حيث تمثل في أداء فريضة الحج لدى أفراد الهوسا الذين يضعون حساباً خاصاً لهذه الفريضة ويحرصون كل الحرص على أدائها بما فيها من تعب ومشقة، وذلك لأنهم يعتقدون أن الحج لا تكتمل بركاته إلا إذا أُدى علي هذا النحو. كما أن لإيمانهم بفكرة المهدي المنتظر الذي يظهر في الشرق أبلغ الأثر علي هجرتهم إلى بلاد السودان، وقد عزز هذا الاعتقاد الشيخ عثمان دانفوديو الذي وجَّه أتباعه بالهجرة

إلى المهدي ومناصرته حال ظهوره. وقد ذكر أن الشيخ دانفوديو تنبأ بظهور المهدي بأرض النيل، الشيء الذي قاد إلى هجرات منتظمة من غرب أفريقيا إلى وسط السودان في انتظار هذا الحدث الكبير.

أما الفصل الثاني فقد ركَّز الحديث علي العلاقات الجينية بين اللغة العربية ولغة الهوسا، حيث أوضح الكاتب أن لغة الهوسا تنتمي إلى مجموعة اللغات التشادية بينما تنتمي العربية إلى مجموعة اللغات السامية، والمجموعتان تنتميان إلى أسرة اللغات الأفروآسيوية وذلك وفقاً لتصنيف جوزيف غرينبيرج (١٩٦٣). غير أن صلة الرحم بين اللغتين قد انقطعت منذ آلاف السنين، ونتج عن ذلك تطور كل لغة بمعزل عن الأخرى حسب المتغيرات والمؤثرات البيئية المحيطة بكل منهما. ثم ما لبثت هذه العلاقات أن استؤنفت في القرون الستة الأخيرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، الأمر الذي مكن لغة الهوسا من اكتساب كم مقدر من المفردات وبعض التراكيب الصرفية والنحوية العربية. ويركز الكاتب في هذا السياق علي الدور الكبير الذي لعبه الشيخ المجاهد عثمان دانفوديو في نشأة أدب إسلامي مكتوب باللغتين الهوسية والفولانية يستمد أصوله وموضوعاته وأساليبه من الأدب العربي الإسلامي، مما أكسب هاتين اللغتين قدراً كبيراً من الألفاظ العربية التي وجدت طريقها إلى العامة في سهولة ويسر.

وتناول الكاتب في الفصل الثالث عملية الاتصال بين اللغة العربية ولغة الهوسا في غرب إفريقيا، وخلص إلى أن أثر هذا الاتصال قد انحسر في المفردات، أي أنه لم يشمل بقية مستويات التحليل اللغوي مثل المستوى الصوتي والنحوي والصرفي. فقد وُجد أن الهوسا قد استوعبت الكثير من المفردات العربية في مجالات عديدة مثل المعادن والأحجار الكريمة والخضراوات والفاكهة والحيوانات وأعضاء الجسم والأدوات المنزلية والأدوات الموسيقية والأسلحة والتجارة والبناء والقانون والزواج والدين والعلوم والمكاييل والمقاييس، الخ. وقد احتفظت معظم هذه المفردات بمعانيها في اللغة العربية، غير أن عدداً مقدراً منها قد

تعرض لبعض التغيرات الدلالية نتيجة حتمية للفارق الثقافي والفكري بين متحدثي الهوسا والعربية.

غير أن وضع الهوسا في بلد متعدد الأعراق واللغات وتسيطر فيه لغة واحدة (العربية) علي وسائل الاتصال - كما هو الحال في السودان - قد خلق بيئة مناسبة لتأثر لغة الهوسا بالعربية بصورة أكبر (الفصل الرابع). فمعظم متحدثي الهوسا في السودان علي سبيل المثال ينطقون الصوتين الطبقيين الخاء والغين بصورة سليمة مع وجود بعض الفروق التي تتوافق مع درجة استعراب المتحدثين. وقد انتهج الكاتب منهجاً تحليلياً منتظماً بني على معرفة عميقة بأسس علم اللغة النظري وعلم اللغة التقابلي، هذا إلى جانب تمكنه التام من اللغة العربية ولغة الهوسا. فقد أظهر التحليل أن هنالك العديد من الأصوات مثل صوت الطاء والضاد والصاد والخاء والعين قد تكيفت على نظام الهوسا الصوتي فأصبحت تنطق تاءً ودالاً وسيناً وهاءً وهمزةً علي التوالي. كما أن النظام النغمي في الهوسا قد تكيف علي نظام النبر في العربية بحيث إننا نجد أن كل مقطع منبور في الكلمة العربية المقترضة في حالة الإفراد يلحق بنغمة صاعدة.

وفي الفصل الخامس تحدث الكاتب عن عملية تكيف المفردات العربية في لغة الهوسا في السودان حيث شمل الاقتراض هنا الأسماء والأفعال والصفات وأدوات العطف والظروف وحروف الجر العربية، وكلها تستخدم علي نفس درجة التواتر مع نظيراتها في لغة الهوسا. وهناك كثير من الأسماء تم اقتراضها في صيغ جموعها العربية ويتم استخدامها علي هذه الصيغ، وذلك خلافاً لما هو متعارف عليه في لغة الهوسا في غرب أفريقيا، كما تبينه الأمثلة في الجدول أدناه:

وفي الفصل السادس تحدث الكاتب عن عملية اشتقاق الأفعال العربية المقترضة في الهوسا في السودان، وأوضح أن ذلك الاشتقاق يتم وفقاً للقواعد الصرفية الهوسية (وليس العربية) كما توضحه الأمثلة التالية:

الفعل في عامية السودان	الصيغة المشتقة في الهوسا	مثال في الهوسا	المعنى
صَوَّت	sawwataa	zai sawwataa	سوف يدلي بصوته (انتخابات)
رَقَّص	raggasaa	za a raggasar da amariya	سوف تُرقص العروس
سَجَّل	sajjalaa	zai sajjalaa	سوف يسجل / يتسجل

أما الفصل السابع فقد عُني بعملية التكيُّف الدلالي للمفردات العربية في لغة الهوسا في السودان. فكما هو الحال في غرب إفريقيا، لقد احتفظت معظم هذه المفردات بمعانيها الأصلية في العامية السودانية، غير أن عدداً منها قد تعرض أيضاً لبعض التغيرات الدلالية نتيجة حتمية للفوارق الثقافية بين المجتمعين الهوسي والعربي. فبعض هذه المفردات يميل إلى التخصيص بحيث تحتفظ المفردة في العربية السودانية بمعناها العام بينما تدل نظيرتها المقترضة علي معنى خاص في الهوسا السودانية، ويميل بعضها إلى عكس ذلك، أي إلى التعميم. ومثال لذلك كلمة "عزومة" azuuma في العامية السودانية التي تعني أي دعوة يقدم فيها الطعام والشراب بينما تعني في الهوسا السودانية الوليمة الرئيسية في العرس. للمزيد من الإيضاح انظر الجدول أدناه:

العامية السودانية	الهوسا السودانية
سرير (سرير من أي نوع)	سرير حديد
دعاية (بشقيها الموجب والسالب)	دعاية (الجانب السالب فقط)
سمك (السمك بصورة عامة)	سمك مقلي

تأسيساً على ما قدم الكاتب من أمثلة لكيفية تكيُّف لغة الهوسا على العربية السودانية على مستويات التحليل اللغوي المختلفة يمكن القول إن هناك عناصر لغوية عربية تكيفت على نظام الهوسا بصورة كاملة وأخرى تكيفت جزئياً، بينما ترجمت أخرى حرفياً، أي أنها نقلت إلى لغة الهوسا في شكل أفكار ومفاهيم. كل هذه الأمثلة تشكل نموذجاً جيداً لكيفية تأثر اللغات ببعضها البعض عندما يتوفر عامل الاتصال اللغوي لدى متحدثيها، حيث ينجم عن ذلك نوع من الصراع اللغوي فتكون نهايته مثلما آلت إليه لغة الهوسا في السودان أو إلى ما هو أسوأ بكثير مثل فقدان اللغة أو موتها. وقياساً على ذلك يمكننا القول بأن لغة الهوسا السودانية قد أظهرت نوعاً من القوة والتماسك مكنَّها من البقاء في بيئة تهيمن عليها اللغة العربية في كل أوجه الاتصال اليومي سواء كان ذلك على المستوى الاقتصادي أو الثقافي أو الاجتماعي. وقد يتبادر إلى أذهان البعض أن لغة الهوسا معرضة إلى عملية تهجين Pidginization Process في المستقبل القريب. فهذا القول قد لا يكون على قدر من الدقة، إذ إن عملية التكيُّف اللغوي (بأسبابها المختلفة) هي إحدى العمليات التي تكتسب بها اللغة قوة إضافية تضخ في عروقها دماء جديدة تعينها على الحياة في ظل المتغيرات الكثيرة التي تحيط بها. فاللغة الإنجليزية على سبيل المثال قد استوعبت قدراً كبيراً من الألفاظ الفرنسية منذ زمن بعيد وما زالت تستوعب ألفاظاً وتعابير من اللغات الأخرى، الشيء الذي مكنها من استيعاب كل ما هو جديد ومستحدث. وكذلك الحال مع لغة الهوسا في السودان، فهي تتغير وتتشكل وفقاً للمؤثرات البيئية التي تحيط بها حتى تتمكن من أداء رسالتها بحسبانها وسيلة اتصال مهمة لشريحة كبيرة من شرائح المجتمع السوداني.

والكتاب في مجمله لم يترك شاردة أو واردة إلا وأوردها في أحسن بيان وأوضح صورة، ولا يخفى على القارئ أن هذا العمل قد أخذ كثيراً من وقت المؤلف وجهده. ومما يزيد من قيمة هذا الكتاب الروح العلمية المحايدة التي تسيطر عليه، والأسلوب السلس الممتع الذي تناول به العديد من المسائل اللغوية الشائكة بصورة تمكن القارئ المختص وغير المختص من متابعة موضوع الكتاب وفهمه في سهولة ويسر. والأمر الذي يعد أكثر أهمية

هو أن الكتاب يمكن أن يكون مرجعاً أساسياً للمهتمين بالدراسات اللغوية وبخاصة ظاهرة التماس اللغوي وعلم اللغة التقابلي والمقارن، هذا إلى جانب الباحثين المهتمين بأثر اللغة العربية في اللغات الأخرى، واللغات الإفريقية على وجه الخصوص.